

علاقة الزوايا بالاستعمار الفرنسي وبمجتمع القبائل في الجزائر وتونس خلال القرن التاسع عشر (النمامشة والفراشيش مثالا)

The relationship of the zaouïas to French colonialism and the tribal community in Algeria and Tunisia in the 19th century
(The case of Nememchah and Frechich)

محمد صلاح حقي

جامعة قصرين (تونس)، shedi1636@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/03/25 تاريخ القبول: 2024/11/07 تاريخ النشر: 2024/11/10

ملخص:

لم تقتصر علاقات الجزائر وتونس مع الاستعمار الفرنسي خلال القرن التاسع عشر على الجوانب الاقتصادية والسياسية والعسكرية وعلى العلاقات الرسمية بل تجاوزتها الى نوع آخر من العلاقات أكثر تعقيدا وهي العلاقة بين زوايا البلدين والطرق الصوفية لاسيما في فضائي الفراشيش من الجانب التونسي والنمامشة من الجانب الجزائري من جهة والسلطات الاستعمارية من جهة ثانية ومرد هذا التعقيد تعارض موقف بعض الزوايا المهادين بل والمرحّب بالاستعمار أحيانا مع موقف مجتمع قبائل القبيلتين المناهض للاستعمار وهو ما خلق نوعا من العداء والتصادم بين مجتمع القبائل وبعض زواياه وخلق فجوة في مجتمع بأكمله وعطل عملية المقاومة وجعل الاستعمار الفرنسي يتغلغل في المجال ويجد حاضنة له مكنته من تركيز قوته مستعملا سياسة " فرق تسد " بتشجيعه للزوايا والطرق الصوفية ليعمق الخلاف بين أبناء المجتمع الواحد ليطيل احتلاله للبلدين أكثر وقت ممكن.

كلمات مفتاحية: الزوايا؛ القبيلة؛ فراشيش؛ النمامشة؛ الاستعمار الفرنسي.

Abstract:

During the 19th c, the relationship between Algeria and Tunisia with French colonization was not limited on the economic, political and military sides not even on official relations, but went beyond them to another sort of relations that is more complex: the relations between the zaouïas of both countries and the sufiways, especially on the frechich area on the Tunisian side and the Nemamcha on the side of Algeria, on the one hand and the colonial authorities on the other hand. The reason for this complexity is the struggle between some corners position which are appeasement and some times welcome colonialism with the position of the tribal community that is anti-colonial. Which paved the way for the relation of a sort of hatred, struggle and conflict between the tribal community and some of its corners and created a gap within the whole community and made resistance more and more difficult even damage it and made the French colonialism widespread step by step and found a sifter that made him more and more stronger using the policy of " teams figlat back", it encouraged corners and sufi-ordres to deepen the dispute between the people of the same community to make his colonialism as long as possible..

Keywords: zaouïas; The tribe; frechich, Nemamcha, French colonialism.

مقدمة:

لم تقتصر العلاقات في فضاء مجتمع القبائل بكل من الجزائر وتونس خلال القرن التاسع عشر على العلاقات بين قبيلتي النمامشة والفراشيش فحسب بل تعدتها إلى العلاقات بين مجتمع القبائل من جهة و الزوايا والطرق الصوفية المتواجدة هي الأخرى في نفس الفضاء من جهة ثانية، باعتبار أن بعض الزوايا لعبت دورا هاما في فضاء مجتمع القبائل لاسيما النمامشة والفراشيش محور دراستنا خاصة بداية من 1881 تاريخ بداية الإحتلال الفرنسي، فالموقف من الإستعمار لم يكن متشابهة ومتناسقا بين مجتمع القبائل والزوايا بل ولم تكن المواقف موحدة حتى داخل الزاوية الواحدة بين مقدم الزاوية والأتباع ممّا تسبب في توتر العلاقات خاصة بين الطرفين. فكيف كانت العلاقات بين مجتمع القبائل و الزوايا والطرق الصوفية التي كانت تتقاسم الفضاء مع القبيلة؟.

1. علاقة مجتمع القبائل في الجزائر وتونس بزواياها خلال القرن التاسع عشر:

1.1. تاريخية الزوايا في الجزائر وتونس:

ما يمكن الإشارة إليه أن الطرق الصوفية والزوايا لا تعرف حدودا بين الجزائر وتونس وخاصة بين مجالي قبيلتي النمامشة الجزائرية والفراشيش التونسية محور الدراسة لاسيما خلال الفترة التي تهمنا (القرن التاسع عشر)، كما يمكن الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبته الزوايا في الحد من الخلافات بين مختلف فئات مجتمع القبيلتين ولئن كان لبعض مشايخها موقفا مغايرا لبقية مكونات مجتمع القبيلة - خاصة فيما يتعلق بمقاومة الاستعمار الفرنسي على غرار ما حصل في بعض زوايا الفراشيش. كما تجدر الإشارة أيضا إلى أنّ الزوايا هي جزء من الطرق الصوفية حيث عملت هذه الأخيرة على تأسيس زوايا تابعة لها في مجالي النمامشة والفراشيش، كما أن ظهورها كان ردّة فعل على الفراغ الذي تسبب فيه غياب المؤسسات الأخرى فكانت بذلك تعبيرا على الحاجات الضرورية لمجتمع القبائل فلا تكاد تخلو قبيلة من زاوية أو زوايا.

2.1. نشأة الطرق والزوايا في الجزائر وأنواعها:

لضرورة منهجية سنعود لدراسة تاريخية الطرق الصوفية في الجزائر حيث إنتشرت هذه الطرق وتشعبت في العالم الإسلامي منذ القرن الرابع عشر ميلادي وكان أول من نادى بها وأسسها الشيخ عبد

القادر الجيلاني في بغداد (جاء الله، 2013، ص.134)، وهو الذي أسس الطريقة القادرية التي تعتبر أول طريقة صوفيّة في العالم الإسلامي والتي تزامنت مع ظهور الطريقة المدينية⁽¹⁾.

أثرت هذه الطريقة على باقي الطرق الصّوفية التي ظهرت فيما بعد واحتلت مكانة هامّة في المجتمع الجزائري، حيث كان للزوايا تأثيرا كبيرا على الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية.

بلغ عدد الطرق الصوفية في الجزائر حوالي ثلاثين طريقة نذكر منها الرحمانية والتيجانية والسنوسية وتفرعت عن كل طريقة زوايا دخلت للجزائر في القرن الرابع عشر وبلغ عدد الزوايا خلال القرن التاسع عشر حوالي 349 زاوية (نسيب، 1989، ص.89)، وتُعرّف الزاوية على أنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية ومقرا لاجتماع مريديها كما كانت مأوى لطلبة القرآن والعلم وقبلة للزوار للإستفتاء والصلح بين المتخاصمين (رايح، 1981، ص.89).

بدأ التصوف في الجزائر نظريا ثم عمليّا بداية من القرن الحادي عشر هجريًا واتخذ تسمية تصوف الزوايا والطرق الصوفية، وقد كانت بجاية والمناطق المحيطة بها منطلقا للتصوف في الجزائر لينتقل منها إلى بقية المناطق الجزائرية، وقد شاع التصوف في البلاد بفضل مدرسة عبد الرحمان الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي وأحمد زروق وغيرهم (ابو القاسم، ص.198- ص.260)، ويعود هذا الانتشار إلى عدة عوامل منها ما هو فكري وما هو سياسي على غرار سقوط الأندلس وهجرة الكثير من صوفية الأندلس إلى الأراضي الجزائرية واحتكاكهم بمتصوفي الجزائر ونشر أفكارهم هناك علاوة على عوامل إجتماعية.

نشأت الزوايا في بلاد المغرب عامّة والجزائر خاصة بعد القرن الثالث عشر وانتشرت في المدن والقرى والأرياف، وقد عرفت الجزائر عددا هاما من الزوايا خاصة في الجهة الغربية والوسط كما انتشرت إنتشارا كبيرا خاصّة في منطقة القبائل لاسيما بعد الإحتلال الإسباني لمدينة بجاية.

تأسست أقدم زاوية في الجزائر - زاوية الشيخ سعادة بالقرب من طولقة في القرن الثالث عشر لتنتشر بعد ذلك الزوايا في أنحاء البلاد خاصّة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ميلادي، ويعود هذا الإنتشار إلى عدة عوامل منها سقوط الأندلس والإحتلال الإسباني والفراغ الإداري وجاهزية السكان لتقبل أي حركة روحية إسلامية تعوضهم الفراغ.

عُرفت الزوايا على أنّها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية يجتمع فيها مريداهم كما أُتخذت الزاوية مأوى لطلبة القرآن والعلم مثل زاوية سيدي تليل بفضاء مجتمع الفراشيش، كما كانت الزوايا قبلة للزوار يقصدونها للإستفتاء والإصلاح بين المتخاصمين، كما كانت مسجدا ومدرسة ومعهد للتعليم القرآني والديني، كما اضطلعت بمهمة مقاومة "الكفار" والمقصود بالكفار هو الإحتلال الأجنبي ومقاومة كل غريب على غرار مقاومة التيجانية للفرنسيين في الجزائر، غير أن المواقف ظلت غير موحدة بين الزوايا وشيوخ الزوايا خاصة فيما يتعلق بمقاومة الإستعمار الفرنسي، كما كان للزوايا دورا أكثر إيجابية في الأرياف منها في المدن.

يمكن تحديد أنواع الزوايا كالآتي: من حيث الإنتساب ومن حيث الموقع ومن حيث الدور الذي تقدمه، فأما النوع الأول فتتنقسم فيه الزوايا إلى زوايا المرابطين وتكون للطلبة ونشر العلم وزوايا الطرق الصوفية والمنسوبة (أي المنسوبة إلى شخص)، وأما النوع الثاني فالمقصود به زوايا الأرياف وزوايا المدن، وأما النوع الثالث فهو زوايا العلم وزوايا السحر.

يوجد في الجزائر ثلاث أنواع من الزوايا وهي:

- زوايا المشايخ: وتعتبر هذه النوعية من الزوايا ملكا خاصا للشيخ الذي يتصرف فيها كما يشاء بل ويعيش البعض من المشايخ وعائلاتهم من مواردها ويشبه نظام هذه الزوايا النظام الملكي الوراثي، وصاحب هذه الزاوية عادة ما يكون صاحب طريقة، ويعتبر الشيخ صاحب الحل والعقد ولا يمكن مناقشته أو إنتقاده ولا يحق لأي كان من المريدين أن يتدخل في شؤون الزاوية، والشيخ هو الذي يتصرف في مداخل الزاوية دون محاسبة ودون أن يعلم أي كان عن مآل هذه المداخل، وهو الذي يعين المعلم ويعزله بل ويحدّد بعض مواد التعليم في الزاوية (نسيب، 1989، ص.103)، ويكون الأمر وراثيا في حالة وفاة الشيخ إما عن طريق الوصاية أو وفقا لمبدأ اختيار العائلة.

- زوايا المرابطين: وهي عكس الأولى باعتبار أنها زوايا ذات ملك جماعي، كما تختلف عن زوايا الشيخ في كون ليست لها طريقة صوفية ولا مريدين ومواردها محبسة عن طلبات العلم.

- زوايا الطلبة: تختلف هذه الزوايا عن سابقتها نظرا لتمتع طلبتها باستقلالية تامة في تسيير شؤون المؤسسة.

2. الزوايا في مجال الفراشيش: رحلة الطريقة الرحمانية من بسكرة الجزائرية إلى فضاء قبيلة الفراشيش ودور الإستعمار الفرنسي في ذلك

تأسست في فضاء مجتمع قبيلة الفراشيش أربعة زوايا تابعة إلى ابن عزوز أهمها زاوية ابن عزوز بالقصرين وزاوية ابن عزوز بتالة التي تأسست حوالي 1860 وقد حظي الحاج مبارك بن محمد الفرشيشي بمشيختها، وقدر عدد أتباع هذه الزوايا بنصف الفراشيش لكن ذلك لا يعني دوام الموالاة لها.

تعود الزاوية إلى محمد بن عزوز الذي ينحدر من البرج بمنطقة الزّيبان وهو أحد أتباع الطريقة الرحمانية وتعود رحلة الزاوية من بسكرة إلى مجال الفراشيش بتونس إلى 1843 تاريخ احتلال بسكرة من طرف الاستعمار الفرنسي الذي أجبر محمد بن عزوز على المغادرة إلى نفطة أين أسس زاوية رحمانية ثم آلت مشيختها من بعده إلى ابنه مصطفى (توفي 1866) حيث عرفت الطريقة في عهده أوج إتساعها وإشعاعها ليصل إلى فضاء مجتمع قبيلة الفراشيش.

عرف مجال قبيلة الفراشيش بخضوعه للطريقة الرحمانية في غالبه ورحمانية الجريد بالخصوص، وتذكر الكتابات أن مؤسس الطريقة الرحمانية هو محمد بن عبد الرحمان بوقبرين الذي توفي سنة 1793 وأن أحد أتباعه ويسمى سيدي يوسف بوحجر (توفي 1831) استقر بالكاف خلال الفترة الممتدة بين 1794 و1800 وهناك أسس زاوية ظلت إلى حدود سنة 1843 بمثابة الزاوية الأم للطريقة الرحمانية ببايلة تونس (ابن أبي الضياف، 1989، ص.38)، إلا أن هذه الزاوية فقدت إشعاعها لصالح الزاوية الرحمانية التي تأسست بالجريد على يد محمد بن عزوز الذي ينحدر من البرج بمنطقة الزّيبان والذي غادر بسكرة الجزائرية سنة 1843 على إثر الإحتلال الفرنسي للمنطقة ليجد له مستقرا في نفطة التونسية ويؤسس زاوية رحمانية آلت مشيختها إلى ابنه مصطفى بن عزوز الذي توفي سنة 1866، ويعدُّ أتباع هذه الزاوية بالبلاد التونسية 114.152 تابعا وهو ما يجعلها تحتل المرتبة الثانية بعد الطريقة القادرية بالبلاد من حيث الكم (الأخضر، 1993، ص.47).

وهكذا ترجمت رحلة الطريقة الرحمانية من بسكرة الجزائرية إلى نفطة التونسية نوعا آخر من العلاقات بين البلدين – علاوة طبعا عن العلاقات الإقتصادية والسياسية -، كما يمكن الإشارة إلى

مساهمة الإستعمار الفرنسي ولو بطريقة غير مباشرة في إشعاع الزاوية الرحمانية ووصولها إلى منطقة الوسط الغربي للبلاد التونسية مجال مجتمع قبيلة الفراشيش الذي تأسست فيه أربع زوايا تابعة للطريقة الرحمانية تعود بالنظر إلى ابن عزّوز وبالتحديد بكل من القصرين وتالة.

نستنتج ممّا تقدم الدور الذي لعبه الاستعمار الفرنسي في رحلة الطريقة الرحمانية من بسكرة الجزائرية إلى فضاء الفراشيش بالبلاد التونسية، كما نستنتج خضوع مجال الفراشيش للطريقة الرحمانية ورحمانية الجريد خصوصا.

لم يهمل الاستعمار الفرنسي الزوايا والطرق في كل من الجزائر وتونس بل أولى هذه المسألة أهمية بالغة من خلال الدراسات التي أعدّها العسكريون حتى قبل دخول الإستعمار إلى البلدين شأنها شأن القبائل والزوايا والطرق المتلازمة في علاقاتها، حيث قام المستعمر بعملية مسح للطرق الصوفية وأسماء مشايخها وعدد الزوايا علاوة على ذكر المدن وتحديد مواقعها إضافة إلى تقديم لمحة تاريخية عنها وعن مختلف أنشطتها الإقتصادية وطبيعة سكّانها فمثلا جمع "ديبون" سنة 1896 (العجيلي، 2009، ص.74) معلومات هامة عن تاريخ التصوف في الجزائر وتونس حيث طالب الحاكم العام للجزائر - المقيم العام المساعد بتونس - "ريفال" ⁽²⁾ (Martel, 1965, p.563) تمكينه من معلومات تخص الطرق والزوايا بتونس وقد إستجاب لطلبه من خلال توجيهه لمنشور تحت رقم 63 مؤرخ في 20 فيفري 1896 إلى المراقبين المدنيين لحثّهم على تجميع المعلومات المتعلقة بالطرق والزوايا (العجيلي، 2009، ص.75).

3. علاقة الزوايا بمجتمع القبائل في الجزائر وتونس خلال القرن التاسع عشر: بعض الزوايا تخذل مجتمع القبائل في مقاومة الاستعمار

لئن لعبت الزوايا التابعة للطريقة الرحمانية ⁽³⁾ بفضاء مجتمع الفراشيش دورا سلبيا في مقاومة المدّ الإستعماري وهادنت المستعمر وخذلت - كما سبق وأن ذكرنا - مجتمع القبائل - فان الزوايا الرحمانية بالجزائر عامة وفضاء مجتمع النمامشة خاصة كان لها دور مختلف تماما عن دور الزوايا في فضاء الفراشيش رغم إنحدارهم من نفس الطريقة، حيث كان للإنتفاضات والثورات الشعبية التي قامت بها الطريقة الرحمانية خلال القرن التاسع عشر أسس دينية وهي الجهاد ضد النصارى المعادين للإسلام، وبناء على ذلك أدّت الزوايا الرحمانية دورا كبيرا في معظم تلك الإنتفاضات وأثّرت بشكل جلي

على مسارها واستمرارها وهذا ما يجعلنا نستنتج أن موقف الزوايا لا يعكس بالضرورة موقف الطريقة التي تنتهي إليها وإنما هناك خصوصيات محلية حكمت هذه المواقف، فاطر محاولة الإستعمار الفرنسي طمس الهوية الجزائرية عزمت الزوايا الرحمانية على صدّ الهجمات الإستعمارية الثقافية بالتكثيف من نشاطها ونشر دعواتها بين الأهالي لنشر الوعي القومي وكانت الملجأ والمأوى لبقية الأهالي للدفاع عن مقوماتهم فكان إهتمام الزوايا وشغلهم الشاغل تعليم الدين وشرح القرآن وما يتصل به من علوم التشريع والعقائد والحديث وحماية المجتمع من الإنسلاخ والذوبان في الثقافة الفرنسية (اعميراوي، 2005، ص.ص. 52-53)، حيث تقول حميدة اعميراوي: "... رغم كل الإجراءات والقوانين والحقد الذي أعمى قلوب الفرنسيين للقضاء على الهوية الوطنية من دين ولغة وعادات وتقاليد إنقلب هذا الشيء ضدها وبأفعالها أيقظت الروح القومية الإسلامية الجزائرية داخل قلوب أولاد الجزائر فشرعوا في شحن الهمم لتلقيها دروسا لن تنساه" (اعميراوي، 2005، ص.ص. 52-53).

يذكر "حمدان خوجة" في "المرآة" أن شيوخ الطرق الصوفية هم الذين أمروا المواطنين الجزائريين بالتعبئة العامة ومقاومة الإحتلال الفرنسي والمدّ الإستعماري كما أكّد الضابط "دي نوفو" في كتابه "الإخوان" سنة 1945 الدور الهام الذي اضطلعت به الطرق الصوفية في مواجهة الإستعمار في الجزائر لاسيما في الشرق وفي فضاء النمامشة، كما يؤكد تقرير القائد الأعلى "دي توربيل" الذي صدر بتاريخ 4 أوت 1859 أن "مبعوثين وفدوا من مختلف أنحاء الشرق وينتمون إلى مجموعة سيدي عبد الرحمان بوقبرين الدينية الرحمانية التي يسكن مقدمها الأكبر سي المختار بواحة أولاد جلال (بسكرة) ليسوا غرباء عما يجري، وقد كانت أشغال لجان التجمعات التي شرع فيها من نواح عدة في نفس الوقت موضوعا لخطبهم ومواعظهم" (قاسمي)، كما يؤكد السيد "أوكتاف ديبون" المفتش العام للبلديات الممتزجة بالجزائر في تقرير بعث به إلى لجنة مجلس الشيوخ المكلفة بالجيش والتي كان يرأسها "كليمانصو": "إننا سلفا نجد يدا مرابطية وراء كل هذه الثورات التي يقوم بها الأهالي ضدنا"، من جهته ذكر طيب جاب الله (جاب الله، 2013، ص.ص. 142-143) أن الزوايا في الجزائر ومنه فضاء قبيلة النمامشة لعبت أثناء الاستعمار الفرنسي دورا بارزا إذ كانت المصدر الرئيسي الذي مول الثورة بالمجاهدين فبعض الزوايا التحق جلّ أعضائها بالجهاد بحيث كانت مركزا استراتيجيا للمقاومة.

كانت - إذا - الزوايا على اختلاف طرقها من الرحمانية إلى التيجانية إلى القادرية كلها تشترك في هدف واحد وهو الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية عكس ما كان يعتبره بعض المؤرخين وعلى

رأسهم لويس رين الذي كان يرى أن حركة الإخوان هي حركة دينية مبنية على التعصب الديني والعرق وكان يقصد بحركة الإخوان الرحمانيين آنذاك الذين امتدت مقاومتهم إلى كل المناطق تقريبا والقبائل الشمالية من الجزائر العاصمة إلى القل وجيجل وباتنة وحصارهم لمراكز الفرنسيين وقلاعهم في العديد من المناطق سنة 1865 م الأمر الذي أصبح يمثل خطرا كبيرا على فرنسا التي أدركت أن ما يقوم به الإخوان الرحمانيين (استطاعوا خلال مدة زمنية قصيرة تكوين جيش يمثل أكثر من 120 ألف مجاهد ينتمون إلى 250 قبيلة تتألف من 600 ألف نسمة) لا يمثل حدثا دينيا فقط وإنما يتجاوز ذلك إلى الجانب السياسي مما أجبر السلطات الفرنسية على ضرورة دراسة هذه الخلايا من الزوايا (الاصالة، 1973، ص. 73) التي إلتحمت مواقفها مع مواقف مجتمع القبائل ومنه قبيلة النمامشة محور دراستنا عكس ما حصل مع قبيلة الفراشيش في تونس التي كانت مواقفها مختلفة عن مواقف زواياها التي خيرت مهادنة الإستعمار ومنها التي تنتمي إلى الطريقة الرحمانية.

4. ما علاقة الطرق الصوفية والزوايا بالاستعمار الفرنسي ؟

بقطع النظر عن علاقة الطرق الصوفية والزوايا بأتباعها - سواء في قبيلة الفراشيش أو النمامشة - فإن الاستعمار الفرنسي لم يهمل هذا الجانب ويتجلى ذلك من خلال تجميع المعلومات المتعلقة بهذا الأمر وخاصة كل ما يتعلق بالتنظيم الداخلي للطرق وعلاقاتها بالزوايا التي تتميز في الغالب بالطاعة شبه المطلقة للأتباع تجاه المشايخ وهو ما دفع بالسلط الإستعمارية الى إحكام المراقبة على المشايخ - خاصة في قبيلتي الفراشيش التونسية والنمامشة الجزائرية الذين اتخذوا منذ البداية موقفا معارضا للإحتلال - من خلال التدخل الإستعماري في تسمية مشايخ الطرق وذلك بفرض تعبير بطاقة إرشادات والإعتماد على رأي العامل والمراقب المدني وفرض بطاقة قيس وبطاقة عدد (الاصالة، 1973، ص. 74)، وتتم عملية إختيار المشايخ وفقا لشروط ومقاييس المكانة الإجتماعية والوجاهة والنفوذ على السكان أي مدى قدرتهم على التأثير في محيطهم الإجتماعي لضمان مبدأ الولاء التام للإحتلال ولتسهيل عملية توظيفهم لصالح السلطات الإستعمارية، كما أخضعت السلطات الإستعمارية مشايخ الطرق إلى المراقبة الشديدة نظرا لما لهم من نفوذ على أتباعهم لأنها ترى أن الهدف من تنقلاتهم ليس فقط جمع الأموال بل نقل الأخبار وهو ما دفعها إلى إصدار عدة مناشير تنظيمية لمزيد إحكام السيطرة على هذا الصنف من المجتمع (العجيلي، 2009، ص. 83).

يعتبر مجال الفراشيش مجالا خصبا من حيث إنشاء الزوايا وإن ظلت المدن (المجتمع المستقر) قليلة اقتصررت فقط على قريتي تالة و فريانة بالأساس، ويمكن رصد العلاقة بين مجتمع القبائل من جهة والزوايا والمدن من جهة ثانية خاصة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أي بداية من 1830 و 1881 – تاريخي بداية الاحتلال في كل من الجزائر وتونس وتصدي بعض القبائل له بينما اختار البعض الآخر من مكونات المجتمع في البلدين عدم المقاومة بل ووصل بهم الأمر إلى التعاون ممّا أدّى إلى حصول توتر وصل حدّ الاعتداء من قبل مجتمع القبائل على المكونات التي إختارت الخضوع للاستعمار.

لم تكن مواقف العديد من الزوايا متناغمة مع مواقف مجتمع القبائل في الجزائر وتونس وبالتحديد النمامشة والفراشيش في مسألة مقاومة الاستعمار الفرنسي منذ معركة تبسة في 10 سبتمبر 1881م مرورا بمعركة حيدرة في 17 أكتوبر 1881 وصولا إلى معركة الروحية في 23 أكتوبر 1881 باستثناء الموقف الإيجابي التي اتخذه مقدم الزاوية القادرية بالفراشيش الحاج صالح العسيلي (توفي سنة 1916) الذي انظم إلى المقاومة مع هذه القبيلة واعتبر وراء المقاومة التي تصدت للهجمة الإستعمارية الفرنسية ومحرك شرارة اندلاع معركة حيدرة.

5. الزوايا التي خذلت المقاومة في تونس وهادنت الإستعمار الفرنسي :

من أبرز الزوايا الموجودة في فضاء مجتمع قبيلة الفراشيش التي خذلت القبيلة هي زاوية عين المنشية الرحمانية التي تعود بالنظر إلى زاوية الرحمانية بالكاف، حيث رفض مؤسسها وشيخها محمد صالح بن الحاج الشافعي (توفي سنة 1910) الانضمام إلى مقاومة القبائل للمدّ الإستعماري، وقد عبّر عن رفضه بفراره – صحبة عائلته – إلى جبل سمّامة واحتفى به وكنّيجة لهذا الموقف الداعم للإستعمار تم تعيينه – كمكافأة له – فايدا على أولاد ناجي – إحدى فروع قبيلة الفراشيش الثلاثة - سنة 1886 وفايدا على كل القبيلة (العجيلي، 2009، ص. 125). لكن هل يُعبّر موقف شيخ الزاوية عن موقف الأتباع؟.

لم يكن موقف الشيخ محمد صالح بن الحاج الشافعي منسجما مع موقف أتباعه الذين خيروا التحالف مع مجتمع قبيلة الفراشيش في مسألة مقاومة المدّ الاستعماري الفرنسي القادم من التراب الجزائري وهو ما يعني أن موقف شيخ الزاوية لا يعكس موقف الأتباع، كما نشير إلى تباين المواقف بين

الزوايا التابعة لنفس الطريقة وكذلك من شيخ إلى آخر ممّا يجعلنا نستنتج أن مواقف الزوايا من الاستعمار الفرنسي ليست مملاة من قبل الطريقة التي تنتمي إليها بل كانت مواقف مستقلة نابعة عن الزوايا في حدّ ذاتها وربما كانت الزوايا تقدر المواقف تبعا للأحداث على الأرض وطبقا لمصالحها دون العودة إلى الطريقة، فموقف زاوية المنشية الرحمانية اختلف عن موقف بقية الزوايا الأخرى الرحمانية وهو ما يعني أن المواقف لم تكن مرتبطة بالإنتماء إلى نفس الطريقة، فمثلا كان موقف الزاوية الرحمانية بأولاد عون مختلفا عن موقف زاوية عين المنشية رغم اشتراكهما في الانتماء إلى نفس الطريقة فشيخها أحمد بن عبد الملك كان موقفه معاديا للإستعمار الفرنسي الشيء الذي تسبب له في الإقصاء من قبل الجنرال فيلبار إلى تونس سنة 1881 (العجيلي، 2009، ص. 113)، كما كان موقف زاوية الطريقة الرحمانية بالكاف مخالفا لموقف شيخ زاوية عين المنشية بمناهضته للإستعمار وتشجيعه للأهالي على الوقوف في وجه القوات الفرنسية الزاحفة (العجيلي، 2009، ص. 113)، كما كان موقف شيخ زاوية الرحمانية بكدية الحلفاء بماجر مناهضا للإستعمار عكس موقف زاوية عين المنشية (العجيلي، 2009، ص. 113).

كما عرف "أحمد بن عبد الملك" شيخ الرحمانية بقنطرة سليانة بمناهضته للإستعمار وكذلك الشأن بالنسبة لقبائل عمدون الذين ينتمون إلى الطريقة الرحمانية، كما نشير إلى أن الطريقة الرحمانية كانت شرارة انطلاق العديد من الانتفاضات في الجزائر .

يحيلنا هذا الأمر وهذه المواقف المتضاربة مع مواقف زوايا مجتمع قبيلة الفراشيش رغم الإشتراك في الإنتماء إلى نفس الطريقة الرحمانية إلى الوصول إلى إستنتاج يتمثل في كون مواقف الزوايا وخاصة زاوية عين المنشية نابع من تأثير شيخها ولا علاقة له ببقية الزوايا المنتمية إلى نفس الطريقة، فالطريقة الرحمانية التي خذلت مجتمع القبائل في فضاء الفراشيش كانت منطلقا لانتفاضات ضد الإستعمار في غالبية الفضاءات الأخرى ومنها الجزائر حيث أن المناطق التي إندلعت فيها المقاومة تنتمي كلها إلى الطريقة الرحمانية.

كما نشير إلى أن موقف شيخ الزاوية لا يعكس موقف الأتباع حيث لم يكن موقف محمد الصالح بن الحاج الشافعي منسجما مع أتباعه في علاقته بالإستعمار الفرنسي إذ إنظم أتباعه إلى المقاومة في الوقت التي خذل فيه الشيخ مجتمع القبائل وخير مهادنة الإستعمار وهو ما وترّ العلاقة بينه وبين

أتباعه وأجبره على الفرار إلى جبل سمامة والإحتماء به كما أن مواقف بعض الزوايا المهادنة للإستعمار دفع بمجتمع القبائل إلى الإنتقام منها على غرار ما حصل مع زاوية ابن عزّوز في تالة التي أغار عليها الفراشيش لمعاقيبتها على موقفها المرحب بقوات فورجمول سنة 1881 بعد معركة حيدرة ونهبها ونفس المصير لاقته مدينة / قرية تالة، من جهتها نحت زاوية أحمد التليلي بفييانة نفس منحى زاوية المنشية بتالة حيث تجند أعيان الزاوية في خدمة الإستعمار الفرنسي.

نلاحظ من خلال ما تقدم أن المواقف من المقاومة يحدد طبيعة العلاقات بين الزوايا والمدن من جهة وبين مجتمع القبائل من جهة ثانية رغم الإنتماء إلى نفس الطريقة، فالعامل الطرقي أو القبلي غير محدد للعلاقات (العجيلي، 2009، ص.125).

تدفعنا هذه المواقف الى الأسئلة التالية:

- هل يعكس هذا التناقض في المواقف فردية القرارات والمواقف من قبل الزوايا أو شيوخها ؟
- وهل تعتبر هذه المواقف مجرد إجتهادات فردية ؟ وما سرّ عدم التنسيق بين الزوايا المنتمية إلى نفس الطريقة وبينها وبين الطريقة التي تنتهي إليها ؟
- والسؤال الأهم هل لهذه المواقف مقابلا ماديا أو معنويا ؟ ولماذا وقفت هذه الزوايا موقفا مهادنا بل داعما للمدّ الاستعماري ؟.

تقول لطيفة لخضر: " بقطع النظر عن موقف شيخ الرحمانية علي بن عيسى بالكاف فإننا لم نسجل أية مقاومة للطرق الصوفية بالبلاد أمام الدخول الفرنسي " (الأخضر، 1993، ص.77) غير أن هذا الاستنتاج من الأخضر يبقى نسبيا ومحل نقاش باعتبار أن الطريقة القادرية كانت من الطرق الصوفية التي قاومت الاستعمار بصرف النظر عن أسباب اتخاذها لهذا الموقف نظرا لكون المدّ الاستعماري هدّد مصالحها في تحالفها مع السّلطة، وقد أرجعت لطيفة الأخضر ذلك إلى التربة الجغرافية والاجتماعية التي تتميز بالانفصال النسبي عن نفوذ المخزن رغم أنّ تعيين شيخ الزاوية يكون بأمر من الباي وهو ما جعل - ربّما - هذه الطرق تعتقد أن الدخول الفرنسي لا يمسّ من واقعها ولا يغير قوانين حياتها ولا يمسّ من سيادتها المستقلة عن سيادة الباي فتعاملت - بالتالي - بمنطق براغماتي مع المدّ الاستعماري طالما أنّ سلطتها غير مهددة بل وربما اعتقدت أن الاستعمار الفرنسي

سيدعم نفوذها خاصة وأنها تمثل الطرف الثالث في المفاوضات مع المستعمر بعد الباي والقبيلة وهو ما يعني - ربما - أن إزاحة الباي يكسبها تقدماً في مرتبة التفاوض وبالتالي في التفرد بالسلطة لذلك رفضت الطرق الدينية تجنيد مخزونها الاجتماعي القبلي الريفي لمقاومة المدّ الاستعماري.

كما تجدر الإشارة إلى أن الموقف المهادن للطريقة الرحمانية بالبلاد التونسية لا يمكن دراسته بمعزل عن الشرق الجزائري باعتبار أن الموقف الطرقي الجزائري قد انعكس على موقف الطريقة الرحمانية بفضاء الفراشيش القريب من الشرق الجزائري وبالتالي من فضاء مجتمع قبيلة النمامشة خاصة وأن رحلة الرحمانية كانت إنطلقت من الشرق الجزائري إلى الكاف والجريد وصولاً إلى فضاء الفراشيش.

تواصل هذا الموقف المهادن بل المتحالف من الاستعمار الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى دون شروط وهو ما جسده الرسائل التي وردت على الإقامة العامة بتونس بين 8 و27 نوفمبر 1914 (جريدة الزهرة، 1914) من طرف الشيوخ الكبار للطرق وشيوخ مختلف زواياهم وهي رسائل تحمل ولاء للإستعمار الفرنسي وطمأنة له للتحالف معه أثناء الحرب (الأخضر، 1993، ص.81).

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن بعض شيوخ الزوايا كانوا يشجعون الأهالي على الانخراط في الجندية مساهمة منهم في الحرب إلى جانب فرنسا رغم أن الإمبراطورية العثمانية كانت في الصف المضاد لفرنسا أي في الصف الألماني وهذا نتيجة السياسة الفرنسية التي أوهمت شيوخ القبائل أن ما يربطها هي علاقة إحترام لهويتهم الدينية، كما يمكن تفسير مهادنة بعض الطرّق والزوايا للإستعمار وخذلانها لمجتمع القبائل في بلاد المغرب عامّة ومجالي النمامشة والفراشيش خاصّة بعدّة أسباب تصبّ كلّها في عامل المحافظة على مصلحتها أهمها:

- إخفاق مجتمع القبائل في التصدي للإستعمار ويعود ذلك إلى عدم تكافؤ في موازين القوى بين الإستعمار ومجتمع القبائل لاسيما النمامشة.
- خذلان العثمانيين لمجتمع القبائل
- السياسة الاستعمارية الفرنسيّة حيث تعامل المستعمر مع الطرق الصوفية والزوايا تعاملًا براغماتياً ذكياً لاحتوائها وتفريقها عن مجتمع القبائل وذلك بتظاهره باحترام القيم الروحية

للتونسيين والجزائريين من دين وعادات وتقاليد روحية وهو ما مكّنها من إحتواء بعض مشايخ الطرق علاوة على التفطن إلى أمر مهم لدى الطرق الصوفية والزوايا والمتمثل في الإمتيازات التي وفرتها السلطات الإستعمارية من إغداق أموال وتمكينهم من السلطة والوظائف نتيجة إدراك المستعمر أطماع بعض الشيوخ وهذا ناتج عن الدراسات التي قامت بها السلطات الإستعمارية على مجتمع القبائل والمدن قبل الإحتلال (العجيلي، 2009، ص.159).

- طبيعة الفكر الطريقي الذي يركز على الزّهد في الحياة والرغبة في الآخرة ممّا جعل الأتباع لا يناقشون في الغالب شيوخهم وإنما يطبقون الأوامر وهو ما جعل السلطات الإستعمارية تركز على مشايخ الطرق واحتوائهم لأن احتوائهم يعني إحتواء الأتباع ولكن هذا الإستنتاج يبقى نسبيا (العجيلي، 2009، ص.159).

خاتمة:

نستنتج من خلال ما تقدم أن الاستعمار الفرنسي لعب دورا مهما في انتقال بعض الطرق الصوفية من الجزائر إلى تونس وفي نشأة بعض الزوايا بفضاء قبيلة الفراشيش، كما نستنتج أن مواقف الزوايا من الإستعمار الفرنسي - سواء في فضاء قبيلة النمامشة الجزائرية أو قبيلة الفراشيش التونسية لا يعكس بالضرورة موقف الطرق الصوفية التي تنحدر منها وهو ما يعني أنّ الزوايا تتخذ مواقفها دون الرجوع بالمشورة إلى الطرق الصوفية وهو ما يؤكده مواقف العديد من الزوايا المتضاربة تجاه المد الاستعماري الفرنسي رغم انتمائها لنفس الطريقة الصوفية، كما لا يعكس موقف مقدمي الزوايا مواقف الأتباع كما حصل مع محمد صالح بن الحاج الشافعي مؤسس زاوية المنشية بفضاء الفراشيش وهو ما يعني أن المواقف تحددها المصالح الضيقة التي تتحقق لمقدم الزاوية على حساب مصلحة البلاد، وربما أحدث هذا التضارب في المواقف من الاستعمار - بين الزوايا وبين مقدميها ومؤسسيها وأتباعها- شرخا وشتّت وحدة مجتمع قبيلة الفراشيش ممّا سهّل التّوغل الاستعماري في الفضاء خاصة مع توتر العلاقة بين مجتمع القبائل وبعض الزوايا وصلت إلى حد الاعتداء والإغارة والعبث بالملكات.

الهوامش:

- (1) مؤسسها الشيخ أبو مدين شعيب في مدينة بجاية الجزائرية
- (2) ريفوال أمدي (Revoil Amedée)، محام، شغل خطة رئيس مصلحة كتابة الدولة بوزارة البحرية والمستعمرات (1886 – 1889)، ثم نفس الخطة بوزارة الفلاحة (1890 – 1893)، ثم مدير ديوان وزارة الشؤون الخارجية، كما تم تعيينه مساعدا للمقيم العام الفرنسي بتونس بتاريخ 28 نوفمبر 1895 ثم حاكما عاما للجزائر بتاريخ 18 جوان 1910.
- (3) مجال الطريقة الرحمانية هو منطقة القبائل والمزاب والأوراس والشرق الجزائري وهي مناطق كانت في استقلالية تامة عن المخزن على عكس المناطق الغربية التي كانت لها صلة وثيقة بالمخزن.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن أبي الضياف أحمد (1989)، إتحاف أهل الزماتين بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج 6، الدار التونسية للنشر، تونس.
2. الأخضر لطيفة (1993)، الاسلام الطريقي، دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية، دار سيرا للنشر، تونس.
3. العجيلي التليلي (2009)، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881 – 1939)، تقديم رشاد الإمام، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، الطبعة الثانية.
4. جاب الله طيب (2013)، " دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري"، مجلة عارف، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة البويرة، الجزائر، السنة الثامنة، العدد 14، أكتوبر.
5. حميدة اعميراوي (2005)، جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري، الطبعة السابعة، دار الهدى، عين مليلة.
6. راجح تركي (1981) التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
7. سعد الله أبو القاسم (1985)، تاريخ الجزائر الثقافي من 10 إلى 14 هـ الجزء الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
8. قاسمي الحسني عبد المنعم، دور الزوايا والطرق الصوفية في محاربة الإحتلال الفرنسي في الجزائر - الطريقة الرحمانية انموذجا - مقال رقمي غير مرقم الصفحات،
9. نسيب محمد (1989)، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، مطبعة النخلة، الجزائر..
10. مجلة الأصالة (1973) الحقيقة عن دور زاوية صدوق وإخوان الرحمانيين في ثورة 1871، عدد خاص 166.
11. MARTEL (A), Les Confins saharo – Tripolitains de la Tunisie (1881 – 1911), Paris, P. U. F, T2, t1, 1965, P 583.